إلى المـاء القريب ، فضاع وقت الصلاة ، أضف إلى ذلك أنه بسبب تشعب الطريق ، وشدة الحركة فيه ، وكثرة المنعطفات المحيطة به ، والمنعرجات المؤدية إليه ، لم يكن ليخرج الرأى فيه كاملا أو مكتملا ، وإنما كان يصح الجزء منه أو جزءان ويسقط جزء آخر أو أجزاء .. وكيف يكتمل الرأى والطريق على هذا النحو طريق شائك تحف به مواضع الزلل . فإذا ما سقطت بعض الأقدام فى هذه المواضع ، فهل ينتظر بعد هذا أن ننظر فنرى سوى صورة قد اهـتزت جوانبها واختلطت ملامحها .. فلم يعـد يقربها من الحقيقة شىء .

ولـكن هذا كله لم يكن ليمنعنى من أن أضع قدمي على أول الطريق فى محاولة عبور ذلك الجسر .. جسر الحياة الأدبية التى تندفع فوقه تلك الحركة المتدفقة ما بين الجاهلية والإسلام .. وأشهد أننى وقفت عند بدايته طويلا ، فهالتنى عقباته ، وردتنى مزالقه ، وفكرت مراراً بعد طول النظر فى تجنب الطريق والرجوع من أولى مراحله بخفى حنين .. وكيف لا أوثر السلامة ، والقوم فى معتركه قد اشتبكت فيه الأيدى « واشتجرت العقول » ، على حد تعبير أحد الباحثين .

وأنا لا أنكر أنى أشفقت على نفسى من عبء ذلك كله ، بعد أن كنت قد أعددت العدة ، وشغلت الوقت بالتأمل ، وهيأت الضمير لما هو مقبل عليه ، فلم أملك بعد ذلك كله غير أن أتركه وأنشغل عنه وأنصرف إلى سواه ، ولـكنى لم أكن بتركى إياه زاهداً فيه راغباً عنه .. فقد كنت دائم النظر إليه من بعيد ، تستهوينى ملامحه على ما يكتنفها من ظلام .. وأتطلع إليه بالرغم من كل ماتناثر فوقه من غبار وانتشر حوله من ضباب .. والزمن بعيد عنا ، لايكاد شىء منه يبين فى وضح النهار حتى تطويه موجات الليل فى أعماق المـاضى السحيق ..

غير أن الأمل كفيل بأن يرد الغشاوة عن الأبصار .. ويكشف للسالكين عن مواقع الخطو .. وقد امتد شعاع من الأفق ينير أرجاء